ملف

نكاد لا نعرف شيئاً عما يُكتب في السودان في السنوات الأخيرة، وما نعرفه لا يتعدى العناوين العامة أو مجرد معرفة عابرة ببعض الأسماء التي ذاعت واشتهرت خارج السودان. نتذكر أمير تاج السر الذي باتت أعماله متداولة بشكل جيد بعد نشرها في بيروت والقاهرة، والروائي والشاعر طارق الطيب المقيم في النمسا، والروائي حمور زيادة الذي ما كنا لنسمع به لولا فوزه بجائزة «نجيب محفوظ» العام الماضي، وترشيحه للقائمة القصيرة لجائزة «البوكر» العربية. كأن الخارج أو ما كان يُسمى «المركز» هو الذي يأتي بأسماء من «الأطراف» كي يتم الاعتراف بها وقراءتها وإدخالها في سياقات أسلوبية معينة. رغم ذلك، ظل النص أو النصوص السودانية على مسافةٍ ما مع عموم النصوص العربية، ولا تزال تُعامل كنصوص زائرة ومستجدة على المشهد الأدبي العربي الشامل، وخصوصاً في عواصم «المركز». ما يُتداول بشأن الأسماء والنصوص الجديدة في السودان قليل، ويكاد لا يتجاوز فكرة علاقة هذه الأسماء بسؤال عام يتمثل في البحث عن التجارب التي جاءت بعد ريادة الطيب الصالح، ويتمثل أيضاً في «فحص» جديّة هذه الأسماء وجدارتها وموهبتها أيضاً. لا نعرف المسافة التي قطعها الكتّاب الجدد في السودان عن إرث صاحب «موسم الهجرة إلى الشمال»، ولا نعرف كذلك تفاصيل مضمونية وأسلوبية واضحة عن محاولاتهم لخرق هذا الإرث، ولا نعرف إن كانت طموحاتهم الفردية ذاهبة باتجاهات أخرى مثلاً، والأهم أننا لا نرى محاولاتهم في خرق ذاكرتنا الآمنة والمستتبّة عن السرد والرواية في السودان، ولا ننتبه إلى ضرورة أن تحضر أسماء هؤلاء إلى جانب

أصوات من السودان... قصص بطع

في البدء كانت الحكاية/ تقديم

حمّور زيادة

من البديهي أن أول طفل مشى على الأرض سأل والديه «من أين جئنا؟». لعله سأل أمه. فوالده، غالباً، خرج في رحلة صيد. وإجابةً عن هذا السؤال ستحكي الأم حكاية الخلق. من المنطقي جداً أنه في البدء كانت الحكاية.

أول ما مرره البشر بينهم. عودة الأب من رحلة الصيد ليحكي عن ذلك النمر الذي طارده، أو الصيد الذي رجع به وكيف أمسك به.

في بلاد السودان، في البدء كانت الحكاية. وحتى اليوم عاشت الحكاية. بلاد السودان حكاية كبيرة. يحكون عن فاس التي ما وراءها ناس. يحكون عن النمير الطمبجاني الذي أكل حتى الموت. يحكون عن هيلوة الجميلة، وأمهاتها السبع الساحرات. يحكون عن جرقاس، الكلب الذي شرب البحر.

هكذا تبدأ الحكاية. تمررها الجدّات للحفدة. وباتساع بلاد السودان تتنوع الحكاية. ما سمعته ستيلا قاتيانو يختلف عما سمعه عبد العزيز بركة ساكن، يختلف عما سمعه منصور الصويم.

وفي بلاد السودان تستمر الحكاية. تكتسب استمراريتها من شغف أهل البلاد الشاسعة بالونس والقص. يحكي أهل الصحراء. يحكي أهل الغابة. يحكي أهل النيل. يحكي أهل البحر. ويحكي أهل الجبال. وتجمعهم مدن تنوء بالقصص.

معجونون نحن في بلادنا بالونس. لكل حائط وحجر وشجر حكاية لا بد أن يقصها عليك أحدهم.

في روايتي الأولى «الكونج» حكيت عن «الطاهر نُقد»، الأعمى الذي «يضع -عادة- سريره عصراً أمام منزله ويتكئ عليه يعبث باصبعه في رمل لا يراه، لكنه يذكره. ما أن يسمع خطوات عابر حتى يعتدل ويسأل عن القادم. حين يعرّفه العابر نفسه يناديه الطاهر: تعال يا زول. هات خبراً وخذ خبراً».

لم أخترعه. لكني رأيته.

يعشق أهل بلاد السودان الحكاية. ولهم لذة في سردها.

في هذا الملف ستقرأ حكايات مكتوبة باتساع السودان. وبشغف أهله للحكي. حكايات نبتت من بيئاتٍ متناثرة لدرجة الدهشة. يجمعها ذلك الشغف المقدس.

الأسماء التي كتبت في هذا الملف كلها تلقّت الشعلة المقدسة باكراً. ونبتت مخلصة لمخزون متراكم من المرويات الشفاهية العجائبية. أسماء حفرت لنفسها مكاناً مميزاً في معبد السرد. ستجد خرطوشة ملكية عليها اسم رانيا مأمون، ومسلة كُتب عليها اسم جون بوي. وتمثالاً كوشياً لهشام آدم. وبوابة محفور عليها اسم سايومن أبرام.

في البدء كانت الحكاية. وفي بلاد السودان تعيش الحكايات ولا تموت. يقدم هذا الملف سبع ثمرات ناضجات نبتن في تربة القص. وستجدها، بالتأكيد، مدهشة كبلاد السودان.

* كاتب سوداني، حصلت روايته «شوق الدراويش» على جائزة «نجيب محفوظ» (2015)

ذاكرة الموتى

عبد العزيز بركة ساكن

قالت لي أمي في الحلم:
.الدنيا زائلة يا ولدي.
قلت لها وأنا نائم:
.ليس صحيحاً، نحن الزائلون، الدنيا باقية.
حاولتُ أن تبتسم، لكن الموتى في الحلم عادة لا يستطيعون الابتسام لأن هرموناً خاصاً بانفراجة الفم في تلك الصورة السحرية لا يتم إنتاجه في الحلم. ثم وقف الموتى صفاً واحداً أمامي: جدي عبد الكريم، جبران خليل جبران، حبوبه حريرة، محمد مستجاب، علاء الدين الشاذلي، الكيوكة الصغيرة، قدورة جبرين، نادية، أبو قنبور، محمد عثمان، خديجة، مرجان كافي كانو، محي جابر عطية، عم موسي، انتصار، أبو ذر الغفاري، علي المك، وولت ويتمان، إخلاص أبو غزالة، عمر إبراهيم، قالوا بصوت واحد:
.الدنيا زائلة.
قلت لهم:
. يا أيها الموتى، قلت لهم اسماً اسماً يا أيها الموتى، الدنيا باقية.
وقف سجانٌ نزقٌ بيني وبين محمود محمد طه، استل من بين قلبه وعقله محبرة، كان الشيخُ نحيفاً وجميلاً، مكان عينيه الدنيا كلها تزول تدريجياً وتتلاشى، لكن دون انتهاء، قال لي في الحلم:
.افتتانك بالحقِّ فوَّت عليك إدراك عين الحق.
قلت له وأنا نائم:
. سمِّي لي القتلة حرفاً حرفاً والحقّ حرفاً حرفاً، العدل والمظلمة والروح حرفاً حرفاً.
قال لي:
. اقرأ. ذات الشيء، يسقط عنك حجاب الشيء، حرفاً حرفاً.
قلت له:
.بسم الله الرحمن الرحيم.
قال لي في الحلم وكاد أن يبتسم:
.إذن، ما هو لون الحقيقة؟
قلت له وأنا نائم:
.أسود.
قال لي في الحلم:
. إذن؛ ما هو لون العدل والمظلمة والروح، ما هو لون مسك الأنفُس؟
قلت له وأنا نائم:
.أسود.
قال لي في الحلم:
.إذن، ما هو لون الجهات الستّ؟
حينها فقط تنزّلت عليَّ الأحرف الوسطى من أسماء القتلة، جاءت تعوم في سيل من الدَّم، أخذ يحيط بي وأنا نائم، أفادني صفُّ الموتى في شيئين: الأول أن الدنيا ليست زائلة، الشيء الآخر أن الموتى لا يبتسمون، الشيء الآخر، أن ذاكرة الموتى محشوَّة بالأحياء. قالت لي أمي في الحلم:
. سوف لن تنجو من الموت، الأشجار، الطين، والهوام كلها لا تحميك، وأنت إذ تهرب من الموتِ تذهب إليه.
بكيتُ. عندما استيقظتُ وجدتهم جميعاً يصطفون أمامي، تماماً مثلما كانوا في الحلم، لم يهتم أحد بما كنُت أثرثر فيه، لم يفسِّر أحدٌ لي شيئاً، ولم يضحكني نداء المنادي: أنت، يا أحد الموتى.

* روائي وقاص سوداني، صدر له من الروايات: ثلاثية البلاد الكبيرة (الطواحين، رماد الماء، زوج امرأة الرصاص)، الجنقو مسامير الأرض، مسيح دارفور، مخلية الخندريس، العاشق البدوي، موسيقى العظام، الرجل الخراب.
ومن القصص: على هامش الأرصفة، امرأة من كمبو كديس. حاصل على جائزة الطيب صالح للإبداع الروائي 2009

عبـور

رانيا مأمون *

تتكرر زياراتُه لي ويطرح عليّ نفس الأسئلة بنفس نبرة الحزن:
.ألم تصبحي طَبيبةً كما وعدتني؟
أجيبُ أنا بذات الشعور الطاغي بالندم:
.للأسف، لا!
يقول لي:
.كنتُ أضع فيك أحلامي وظننتك ستحققينها.
أصمتُ لعدم قدرتي على الرَّد، أو ربما إحساس الخيبة الذي يتقطّر من كلماته يصيبني بالخرس.

■■■

رائحتك مدبوغة في شقوق الحائط ممتزجة بذرات التراب. تتسلل إليَّ وتغمر هواء الغرفة. أتلفّت لأعرف مصدرها. تغمرني، تحيط بي، أمدّ يدي كي أقبض بها في كفي، كي أمسّها لعلّي أمسّكَ من خلالها، لعلّي أمسُّ كفَّكَ البيضَّة، وجهك، يدك. أحسُّك قريباً. قريباً جداً. أحسُّك قربي، فيّ، داخلي. أشعرُ بأني إن مددتُ يدي ستصطدم بك.
رائحتُك تفتح مشارع الذكرى فتغزوني بغتةً مثل جيوش النَّمل تلسعني بقوة وفوضى على عيني، جلدي، مسامي، دمي، أذنيّ وهما تلتقطان ذبذبات صوتك الحاني. تغمرني الذكرى فأستشعر دفء حضنك ودفء السرير عندما أنام قربك في طفولتي بدلاً عن أمي.
عندما تأتي من مأموريتك التصق بك مثل الغراء. تحاول أمي أن تبعدني فلا أستجيب. تقول لي: غداً سيسافر. أقول لها: ولكنه سيعود.
الآن وبعد أن كبرتُ وبعد أن ذهبتَ أنت، بعد أن أسلمتني لهذا الفقد الذي يصعب التعايش معه، لن أستطيع أن أجيب نفس الإجابة أو أكون بذاتِ اليقين!
رائحتُك تملأ كل مساحات الفراغ. تخرجني من دوامة ذكرى لتقذفني في أخرى أوسع وأعمق وتضخِم فيّ إحساس وجودك قربي. تحتسي الشاي، بكوبك الكبير الذي ما زلنا نحتفظ به، وكم كنت تحب الشاي. بعده تستمع إلى الراديو مستلقياً على قفاك واضعاً رجلاً فوق أخرى، ثم تعبث في حقيبة ذكرياتك وتنادي عليَّ كي أقرأ هذه الورقة أو تلك. وأحياناً يخاتلني طيفك وأنت تتوضأ تهيؤاً للصلاة، وأستدعي الآن فرحتك عندما انتقلنا لهذا المنزل قرب المسجد حيث قوة الآذان تضرب داخل القلب وتهزّ البدن، قلتَ: أكثر ما يفرحني هو جواري للمسجد، أهناك جارٌ أفضل منه؟

■■■

اليومُ عيد. الكل يرفرف فرحاً. مؤذن الجامع يُكبِّر ويهلِّل والأطفال من بعده يكررون: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله. الله أكبر ولله الحمد.
أبناء اخوتي يدخلون ويخرجون فرحين بملابسهم الجديدة وحلوى العيد لا تفارق أفواههم.
يأتون إليّ ويضجّون:
إياد:
.أين العيدية؟ قلتِ ستعطينا عيدية.
براءة:
.اعطيها لنا بسرعة نريد الذهاب إلى المراجيح.
زياد:
. كم ستعطينا؟ أعطنا نقوداً كثيرة من فضلك.
حينها كنتُ أضع اللَّمسات الأخيرة في ترتيب البيت. أعدِّل من وضع الستائر، أشدّ الملاءات الجديدة، وأزيد الجمرات في المبخر حيث أعواد الصَّندل تكمِّل بهجة العيد وتهبها رائحتها.
اسمع أختي تنادي على أمي:
.أمّي.. أمي، تعالي وانظري لأبي يبدو أنه متعبٌ جداً.
تذهب أمي. تتلمسّه. تسأله لا يجيب. تطلب منها أن تنادي على أخي كي يُحضِر جارنا الطبيب.

«الغابة» للنيجيري رانسوم ستانلي (زيت على كانفاس ـ 100×100 سنتم ـ 2012)